

فلما تألفت أكثر القبائل إلى أمم، وأمكن اتصال بعضها ببعض، وتعددت الأديان وكان أكثرها قد أدخل عليه ما ليس منه حتى التحق بالوثنية، واستعدت العقول لقبول دين عام يوحد وجهتها، ويُسَنَدُ (1) ألفتها، ويصح عقائدها؛ اقتضت الحكمة أن يكون ذلك على يد أمة لا عهد لها بين سماوي، ولا كتاب إلهي، ولا مطمع سياسي أو مطمح عالمي، تنشأ إنشاءً، وتحلى بجميع الصفات التي تؤهلها لمهمتها العالمية طفرة لا على سنة ناموس الترقى، تأثيراً في النفوس بالعجاز.

بعث الله خاتم رسله محمداً لإحداث هذا الحدث العالمي الفذ، فأنزل عليه الدين في نقائه الأول خالصاً من جميع الشوائب البشرية، وأتم على يديه تأليف أمة مثالية في عشر سنين، وهي الأمة التي أعدها الحق لنشر الدين الحق، وإيقاظ العقول من سباتها التقليدي إلى النظر في الوجود، والاستفادة من خصائصها الفطرية للوصول إلى الحقائق الآية نقيه من كل ما يلابسها من وساوس الظنون، وأوهام النفوس، لتحدث في العالم ما أراد الخالق له من نقاء العقائد، وصحة الإيمان، وسلامة الصدور.

قلنا فيما تقدم: (و أتم على يديه تأليف أمة مثالية) وأردنا بذلك أنها بنيت على أكمل الأصول وأرقاها، فقد جرت العادة أن الأمم يحدث تأليفها تحت تأثير الحاجات الحيوية، والضرورات المعيشية، ولكن الأمة الإسلامية لم يحصل تأليفها على هذه السنة الطبيعية، فلم يحدث في قبائل العرب من ضرورات الحياة الاجتماعية ما يدفعها للتألف، ولكنها تألفت بدوافع من حاجات العقول والأرواح كشفها القرآن للنفوس، وبحثها حكمته في العقول، فأجمعت منقاداً بسموها على الأخذ بها، والذيات عنها، ونشرها في الآفاق لتخليص البشرية من أوهام علقت بعقولها في أدوار قصورها، فصرفتها عن سعادتها أحقاباً طويلة.

---

(1) سنن الأمر تسنية: سهله ويسره.